المواجهة والمجابهة أو العنف المتبادل بين الأهل والمراهقين

د. جاكلين سعد(*)

إن تكاثر موجة العنف في العالم سواءً في الدول المتحضرة أم في الدول النامية يدل على أن العنف والعدوان حاضران في كل المجالات الحياتية المعاصرة، وما تطالعنا به وسائل الإعلام المرئي والمسموع عن هذا العنف المتفش والمنتقل أحياناً من بيوتنا إلى المجتمع أو العكس حيث نشاهده في الرياضة وفي الأدب، في السجون ومصحات الأمراض العقلية، في المدارس وفي الأسر، كل ذلك يدل على أن الاختلاف بين المجتمعات فيما يختص بظاهرة العنف ينحصر بنوعية ودرجة هذا العنف وليس في وجوده.

والأسرة كمؤسسة اجتماعية تعاني من هذا العنف الذي يظهر في العلاقات بين كل أفراد الأسرة: كعدوان الآباء على الأبناء، أو الزوج على الزوجة، والعكس صحيح أيضاً في بعض الأسر، وكذلك عنف التعامل بين الأخوة مع بعضهم البعض.

وهنا لا بد من القول بأن خبرات الطفل العدوانية الأساسية مصدرها الأسرة من خلال عملية التعلم والتنشئة الاجتماعية التي يتلقاها داخل أسرته[1] (Bandura 1999 نظرية التعلّم الإجتماعي). وهي عملية مسؤولة عن إكسابه قواعد السلوك الإجتماعي من خلال ملاحظته لسلوك الآخرين العدواني وتقليده فيما بعد، أو كضحية لعدوانهم عليه، أو كمنفذ للسلوك العدواني تجاه الأخرين[2]، وتؤكد الإحصاءات أن 90 في المئة من المعذبين في المنازل أو خارجها هم الذين يمارسون العنف عندما يكبرون. وهكذا فالأطفال المعنفون هم بمثابة قنبلة مؤقتة للمجتمع

والعنف الأسري ليس بالظاهرة الجديدة والدليل هو أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، حدثت بين الأخوين ابني آدم، أفراد الأسرة الواحدة.

وفي الحضارة الإسلامية جدل مستمر حول تفضيل الرجال على النساء، وحول مشروعية ضرب الرجل لزوجته.

كما أن القانون في الثقافة الأوروبية استمر حتى وقت قريب في حماية تفوّق الرجل على

(*) أستاذة في الجامعة اللبنانية.

المرأة وتجريدها من أي حق في الدفاع عن نفسها، والقانون الألماني وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يُعط للمرأة أي حق في التدخل في رسم مصير أطفالها، معتبراً ذلك من حق الرجل وحده، وجردها القانون من حق التصرف في ممتلكاتها الخاصة.

إن حقوق الطفل كانت عبر وقت طويل محدودة جداً مثلها مثل حقوق المرأة، وكما كانت المرأة تعتبر ملكية خاصة للرجل فقد كان ينظر للأطفال باعتبارهم ملكاً خالصاً للأبوين. ولا ننسى وأد البنات في الحضارة العربية قبل الإسلام[3] كما أن دفن الأطفال أحياء تحت أدراج الأبنية، كونهم غير مطيعين، أمراً ممارساً في ألمانيا حتى القرن السادس عشر.

حالياً وبالرغم من توقيع الكثير من المواثيق الدولية التي تتعلق بحماية حقوق النساء والأطفال، فإن العنف في الأسرة لم يختف، وما زالت الإحصائيات الصادرة عن أكثر المجتمعات الإنسانية تطوراً تتحدث عن هذا العنف وعن آثاره المأساوية على المعنفين.

ولن أتناول هنا العنف الزوجي، والعنف الجنسي بين الزوجين وانعكاساته على الأولاد وجو الأسرة العلائقي بشكل عام وإنما سأحصر الدراسة في مجال المواجهة والمجابهة أو العنف المتبادل بين الأهل والمراهقين.

رجل الحدود، أو هذا المراهق الذي يقف على حدود الكبار، ويسمى أيضاً بالرجل الهامشي لا ينتمي إلى هذه الجماعة ولا تلك، أو أنه على الأقل غير متأكد من انتمائه. إن مرحلة المراهقة هي مرحلة من النمو ذات أهمية خاصة، وتتطلب الفهم والوعي من قبل الأهل والمربين لما لها من انعكاسات على حياة الشباب وخصوصاً في هذا العصر الذي يتسم بسرعة التغيير والتقدم الحضاري مما يطرح أمام الأهل والأبناء صعوبات كثيرة في مجابهة عصرهم وتعاملهم مع التطورات المتلاحقة.

فما هي المراهقة؟ هل هي ثورة أم ثروة؟

المراهقة هي المرحلة الإنتقالية من حياة الإنسان من الطفولة سن الإعتماد على الغير، إلى الرشد سن الإعتماد على النفس.

هذه الفترة بين الطفولة والرشد تُسمى المراهقة أو مرحلة الشباب كما يسميها «أرنولد جيزل». وهي من حيث معناها اللغوي: تعني المقاربة، نقول راهق الشيء بمعنى أدركه، وهكذا تكون المراهقة هي مقاربة النضج الجنسي والوجداني والإجتماعي.

ولا يمكن أن نتكلم عن المراهقة دون أن نتكلم عن البلوغ: أي المرحلة التي يتم فيها النضج الجنسي الذي يحصل عند الإنسان خلال مراحل متتابعة، والبلوغ هو التطور الجسدي وخاصة

نمو الغدد الجنسية الذي يجعل الفتى قادراً على أن يُخصّب والفتاة قادرة على أن تحمل. من هنا كانت ضرورة تبصير كل منهما في مرحلة سابقة للبلوغ، بما سيحصل لكل من الفتاة والفتى حتى لا تكون هذه التغيرات مفاجئة بالنسبة لهما ولا تترك آثاراً نفسية قاسية.

تقع مرحلة المراهقة إذاً بين مرحلة نهاية البلوغ وبداية سن الرشد أي تقريباً بين 11-20 سنة. وتعتبر المراهقة ظاهرة بيولوجية نفسية إجتماعية خاصة بالإنسان وحده، بينما البلوغ مشترك بين الإنسان وغيره من الكائنات الحية.

علم النفس الحديث يرفض اعتبار المراهقة ثورة، بل حالة عارضة وما يلاحظ من تمرد وتردد وثورة ليس سوى نتيجة ما يصادفه المراهق من ردات فعل، أو مواقف صلبة من الأهل أو المدرسين تصطدم برغباته واندفاعاته وتحول دون تحقيقها، ويمكن رد هذه الثورة أو العاصفة حسب دراسات الانتربولوجيين إلى مواقف محبطة للمراهق في البيت أو المدرسة أو المجتمع.

في المرحلة المبكرة منها يسعى المراهق إلى الاستقلال، ويرغب دائماً في التخلص من القيود، وضوابط السلطة التي تحيط به، ويستيقظ لديه الإحساس بذاته وكيانه، أما في المرحلة المتأخرة منها، فإنه يحاول جاهداً أن يكيف نفسه على الوسط الذي فيه بحيث يُلائم بين مشاعره المتناقضة وظروف هذا الوسط.

إنها أيضاً مرحلة المخاوف والرفض والنفور، هذه المشاعر المتناقضة التي تدفع المراهق إلى مواقف متأرجحة وإلى توزع وتمزق في وضعيته تجاه الآخرين، وتجاه نفسه، فهو متأرجح بين التعلق والاستقلالية بين التثبت بنماذج طفلية والتماهي بنماذج جديدة، بين الرغبة في الوحدة، والانسحاب إلى عالم خاص من المثل والقيم الذاتية، والرغبة في المشاركة والانفتاح على الآخرين وبذل النشاط وإظهار القوة والفاعلية.

إذاً التذبذب بين الطفولة والرشد هو سبب صراعات المراهق، لأن مكانته الحالية غير واضحة ولا تعطيه فرصة لتحقيق ذاته أو الافتخار بأية مكانة إجتماعية ناتجة عن عمل ذاتي أو نتاج أو شهرة بالمال أو غيره...

إنها مرحلة تكوّن المتطلبات والرغبات الجديدة التي غالباً ما تفاجىء الأهل والمربين، وخصوصاً سعي المراهق للإستقلال والتخلص من القيود وأوامر ونواهي السلطة التي تحيط به، نتيجة إحساسه بذاته وكيانه، فالمراهق هو الذي لم يثبت سلوكه على حال، فهو ليس الطفل الذي كان ولا الرجل الذي سوف يكون.

وعلى الرغم من الاهتمامات المتزايدة بموضوع المراهقة، فإن هذه المرحلة من حياة الكائن

الإنساني ما زالت الدراسات حولها غامضة، ونادراً ما يتفق الباحثون على تعريفها وتحديد بدايتها ونهايتها.

فمنهم من يعتبر المراهقة مظهراً بيولوجياً محضاً، فينظرون إليها كفترة الأزمات والتوترات التي تنتهي بأنهيار توازن شخصية الفرد، وذلك نتيجة التغيرات البيولوجية الجنسية التي تحتل المكانة الأولى في تعليل هذه الأزمة.

أما النظرة التحليلية فترجع أصولها الأولية إلى السنوات السابقة من النمو الجنسي النفسي وتأثير الماضي والحياة اللاشعورية، في الحياة الظاهرية للمراهقة، إذ تلعب العلاقات بين الطفل ووالديه، (وهنا نشدد على العلاقة مع الأم)، دوراً حاسماً في تشكيل صورة الذات. فالعلاقة السيئة تؤدي إلى تكوين صورة سيئة عن ذاته وعن العالم فيصبح كثير القلق وقليل الثقة بذاته (M. Klein).

وهناك من يرى المراهقة كمظهر اجتماعي يختلف من بيئة إلى أخرى باختلاف ثقافات المجتمع. فيعتبر أن التغيرات النفسية عند المراهق ليست بالضرورة ناتجة عن التغيرات البيولوجية فقط بل هي نتاج ثقافة البيئة التي يعيش فيها الفرد.

ويتمثل هذا الاتجاه في موقف علماء الانتربولوجية (Anthropologie) الذين أظهرت دراساتهم اختلاف مظاهر المراهقة في المجتمعات البدائية عنها في المجتمعات الحضارية الحديثة. بمعنى أنه ليس هناك نموذج واحد للمراهقة، بل هناك نماذج متنوعة بتنوع البيئة والمستوى الحضاري. فهناك المراهقة الهادئة والمتزنة في المجتمعات البدائية، والمراهقة في العصر الحالي حيث يسود القلق والتنافس والسرعة فيشب الكائن ليجد نفسه في دوامة الآفاق المتعددة والمحيرة، أي طريق يسلك وأي قيم ومعايير يتبع؟

بمعنى أن أنماط التربية واختلاف أساليبها في المجتمعات لها الأثر الأكبر في تشكيل شخصية المراهق بالإضافة إلى أثر الطبقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهنا نعطي مثل عن الطبقات المتوسطة، التي تتأرجح بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا، والمواقف أيضاً متأرجحة بين النزعة إلى التحرر والنزعة إلى المحافظة، وهذه الطبقة أكثر الطبقات خلقاً لأزمة المراهقة وأكثرها قلقاً إزاء البلوغ لتمسكها بالتقاليد والعادات (خوفاً مما يقوله الناس) وقد تمارس هذه الطبقة ضغطاً على أولادها أكثر من الطبقات العليا في سبيل التحصيل المدرسي وذلك عكس الطبقات الفقيرة التي تشجع أبنائها على ترك المدرسة لايجاد العمل والحصول على المال بسرعة، وكذلك الزواج المبكر مما ينقلهم إلى حياة الرشد إنتقالاً سريعاً.

الثورة الجنسية عند المراهق:

يعتبر «فرويد» أن النضج الجنسي هو عملية فيزيولوجية ونفسية، وإن طرق التربية الجنسية تختلف بحسب الجنس ذكراً كان أم أنثى. ويرى أن الجنسية لا تبدأ مع البلوغ، بل تبدأ في أثناء الطفولة إنطلاقاً من مراحل تطور «الليبيدو» Libido: المرحلة الفمية Stade Oral والمرحلة الشرجية Stade Anal والمرحلة القضيبية Stade Phallique التي يتبعها مرحلة الكمون Stade de latence ثم البلوغ La Puberté [4].

فاضطراب المراهق من ثورة النضج الجنسي قد يشوش علاقاته مع الأنا الأعلى، والذي يحصل على مستوى داخلي لا واعي، ويؤدي غالباً إلى تأزم العلاقات مع ممثلي الأنا الأعلى في المجتمع وفي الدرجة الأولى سلطة الوالدين وسلطة الكبار عموماً. كما أن ميل المراهق ورغبته في الاستقلال عن الوالدين، (وهو ما عبّر عنه أغلب تلاميذ المدرسة الخاصة، كما سنرى لاحقاً)، ما هو إلا لتصفية الرواسب الأوديبية، وتدعيماً للذات، وتكوين للشخصية الذي لن يتم دون الصدام مع الأهل، الذين يخافون على ولدهم الذي لم يعد طفلاً مطيعاً بل بالغاً متمرداً.

ولا ننسى هنا دور الأسرة وأثرها على أزمة الذكورة والأنوثة، وكذلك أثر، العلاقات العاطفية والجنسية الناضجة أو المحبطة بين الزوجين، على المراهقين والتي قد تسهل عملية المرور إلى الرشد من خلال تقبل ذكورة الصبي وأنوثة الفتاة والاعتراف بهما، أو العكس قد تعيق عملية الوصول إلى الرشد الجنسي عند الشاب والفتاة وتعمل على تفجير صراعات المراهق الجنسية. من هنا أهمية الحياة الجنسية للمراهقين، والتي تعتبر أحد الأسباب العميقة لأزمة المراهقة العاطفية.

هناك بلا شك أسئلة يطرحها المراهقون لأجل التحدي وليس لأجل المعرفة الحقيقية. فهنا ليس المطلوب الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ولكن ماذا لو كان السؤال مطروحاً دون أي خلفية أو نية سيئة؟ فكلما كان باستطاعتنا إعطاء إجابة ملائمة لا يجب أن نتردد مطلقاً. أما بالنسبة إلى الأسئلة الأخرى فإننا نرجع بها إلى أهل الإختصاص. ونقول إنه في هذا الميدان، غالباً ما يكون الأهل والأساتذة، لسؤ الحظ، هم الأكثر حذراً وربما تهيباً في الحديث عن الأمور الجنسية...

إن فقدان المعرفة الصحيحة عن الجنس ووظيفة التناسل والانجاب والمعلومات الخرافية، ومواقف الأهل المترددة أمام المشكلات والأساطير التي تُغلّف بها الظاهرات الجنسية يمكن أن تخلق إضطراباً لدى المراهق الذي يمر بمرحلة ضغط الشحنات الجنسية عليه. فالتربية الجنسية المتكاملة يجب أن تبدأ منذ الطفولة وأن تجيب عن تساؤلات الطفل التي يطرحها مع مراعاة النمو والنضج.

المأزق العلائقي للمراهق:

نشدد هنا على النظام العلائقي مع الأسرة والمتجسد بموقف الأهل المتذبذب من المراهق الذي يمثل ذلك الجزء الذي لا يتجزأ من الوالدين (نتاج جسمها) كما يقول «Haïm هاييم»[5] وهو في الوقت نفسه الجزء الذي يجب فقدانه (تعبير عن الخصاء Castration)، ويتوقف مصير الانفصال هذا على قدرة الأهل على إقامة علاقات موضوعية وإمكانيات تعويضية عن خسارتهم للمراهق من خلال إسقاط الآمال على المستقبل، هذه الآمال التي يجسدها المراهق، وقد يرفضها ويثور ضدها لأنها تجرده من عفويته وفطرته وتشل قدراته الحقيقية، ولكنها في نفس الوقت ترضي الذات، الوالديه.

وقلما يستطيع المراهق التحكم في حالته الإنفعالية الخارجية أو السيطرة على سلوكه، فينتقل من الثورة إلى الهدوء أو العكس، ومن الطاعة والولاء للأهل إلى مشاعر الاستقلال والتحرر وقد يتهجم على أسرته... وتختلف طبعاً هذه العلاقات باختلاف الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي...

وكثيراً ما ينفر المراهق من الأسرة وخصوصاً إذا كانت متشددة أو متورطة إنفعالياً تجاهه (حماية زائدة - تساهل - تسلط - لا مبالاة - خضوع للمراهق) وقد يلجأ إلى الهرب من جوها أو تحطيم القيود المفروضة عليه.

ويعتقد بعض العلماء أن الأسرة بما فيها من عادات وتقاليد وقيم لا تقل أهمية من العوامل الوراثية والفيزيولوجية التي تؤثر في الكائن. ولكنها قد تكون عقبة أمام إشباع حاجات الفرد ومحبطه لهمته، إذا كان يسودها الحرمان والقسوة والمشكلات والجهل والتسلط وعدم الاحترام.

إن ضعف فهم الأهل للأبناء يؤسس لعلاقة سيئة وغير سليمة، أضف إلى ذلك الخلافات بين الأبوين أو الطلاق، أو تعدد الزوجات، أو الاختلاف بين الوالدين حول أسلوب تربية الأبناء، وكلها حالات لم تخلُ إجابات التلاميذ من الإشارة إليها. إذاً» كل هذا يمثل عقبات أمام تحقيق حاجات الفرد وأهدافه، وقد يضاف إلى ذلك عدم توفر الإمكانات المادية اللازمة في بعض الأحيان لإشباع هذه الحاجات وخصوصاً في هذه الأيام الصعبة على الصعيد الاقتصادي، ومع تعقد الحياة المعاصرة.

إذاً أسباب كثيرة تساهم في تكوين هذه المرحلة، وحسب بحثنا الذي تناول بعض المراهقين تبين لنا أن الأسباب العلائقية مع الأهل أساسية في هذه الأزمة، وخصوصاً لجهة عنف المراهق الكلامي أو الجسدي.

إن قلق الأجيال الصاعدة ينتشر في العالم كله وذلك لعدة أسباب:

1. ضعف الروابط العائلية التقليدية.
2. تلاشي النماذج: أي اللذين كانت لهم سلطة وفقدوا حقهم في التشريع، وهذا ما جعل المراهقين يشعرون بفراغ لعدم وجود مثل أعلى يرغبون بصورة لا شعورية التشبه به. لذلك يلقون بأنفسهم نحو ثقافة ناتجة عن مواردهم الخاصة، بغية الإفلات من ركاب الضجر والاضطراب، أو قد يجنحون نحو العنف والإدمان.
3. وإذا كان لمقتل الأب في الحرب الأهلية اللبنانية دوراً أساسياً في هذا المجال، ففقدانه في بعض الأسر ليس جسدياً ولا سببه الحرب، وإنما هو فقدان تام لسلطته أو لدوره بالنسبة للأبناء، إما لعدم قدرة من قبله للعب هذا الدور كناتج لتركيبته الشخصية، وإما للحفاظ على الهدوء والسلام داخل المنزل، بعد سلبه هذا الدور وهذه السلطة من قبل زوجته، وفي الحالتين، هناك تنازل صريح عن السلطة الأبوية التي تحرم الأولاد المجابهة الضرورية بين الوالدين. فغياب الأب أو انسحابه والتنازل عن دوره يجعل الأولاد يتمثلون بأمهم مما يعرضهم لكثير من الاضطرابات وسوء التكيف[6].
4. بالإضافة إلى ذلك هناك سبب آخر يُقلق الأجيال الصاعدة، وإن كان أقل تأثيراً مما سبق من الأسباب يختص بالمجتمعات الغنية والغنية جداً، وهنا أعطي مثلاً عن أثرياء الحرب (الحرب اللبنانية وإفرازاتها الغريبة) ومنها ظهور طبقة اجتماعية أكثر من ميسورة (ثراء فاحش) تسبب في زوغان بصيرة المراهقين وجعل نصب أعينهم الرغبة السريعة في الحصول عليه من قبل مراهقي هذه الأسر أو الحصول على مثله من قبل مراهقي بعض الأسر الأخرى المحرومة، وبشتى الوسائل والطرق (إجرام - مخدرات).
5. وإذا أضفنا إلى ذلك التقدم الحضاري السريع في مجال التكنولوجيا وما يتبعه من تغيير سريع في نمط الحياة في كل جوانبها نرى أن مركب الفورية، تزامن الجشع ونفاذ الصبر أصبح موضوع الساعة. والحالة هذه، فإن الشخص المراهق يتوق إلى الحلول محل الشركة القديمة العامودية المبنية على الانتساب إلى نماذج تدريجية، وإلى تأليف نوع من التكتل الضاغط الذي ينتهك المحرمات ويُشعِر بمسؤولية إعادة الأيديولوجيات البالية ويخلق قيماً متصدعة.

   ومن الطبيعي أن تهتز العائلة من صدمة هذه الاضطرابات وكذلك المدرسة، وهي أحد مراكز نقل العدوى لهذه القيم المشبوهة.

6. وأخيراً وليس آخراً نضيف دور الإعلام والإعلان في إعاقة النمو النفسي السليم لهذه الأجيال، حيث يظهر العدوان والعنف كجزء لا يتجزأ من الحياة.

رصد مشكلات المراهق النفسية التربوية والعاطفية العلائقية.

لقد قمت ببحث صغير حول مشاكل المراهقين، ومما دفعني لذلك هو محاضرة طلب مني القيام بها في احدى المراكز في منطقة طرابلس، حول موضوع المراهقة. وقد زهلت لكثرة ما ورد إلي من أسئلة حول هذه العلاقة التي تشوبها الشوائب على ما يبدو، ويغلفها الغموض في كثير من الأحيان (وأقصد طبعاً العلاقة بين الأهل والمراهق) وهي الأساس الذي ترتكز عليه المراهقة السوية أو المنحرفة نحو العنف أو الإدمان أو غير ذلك.

وهنا أورد بعض نماذج من هذه الأسئلة لمراهقين انحصرت اعمارهم بين 14 و19 سنة (وسوف أوردُها بحرفيتها، دون أدنى تغيير في المعنى أو المبنى).

1. كثيراً من الأهل لا يقدروا على استيعاب أولادهم، فيستعمل الأهل طريقة العنف، وهي الطريقة الصحيحة بنظرهم، ولكنها خاطئة كلياً لأنهم بهذه الطريقة قد يخسروا ولدهم. كيف نعالج هذه المشكلة؟
2. إذا عامل الأب أولاده معاملة سيئة، وضربهم يومياً، ماذا يفعل الأولاد؟ .
3. أمي وأبي من طائفتين مختلفتين وأنا حائر مع من أكون من أهلي؟ أرجو الرد على سؤالي؟
4. نرى بعض الأهالي يضعون (الدش) في البيت وعندما يريد الشخص أو المراهق مشاهدتها يأتي الأب أو الأم ويبدأ الصراخ: هذا الشيء ليس لك أو ليس لعمرك. فإذا كان الأهالي يعتقدون أن هذا الشيء غلط فلماذا يدخلونه إلى البيت؟ !
5. إذا كانت الشدة معتمدة في البيت والمدرسة، كيف يمكن للمراهق أن يكون جيد السلوك؟
6. هل صحيح أن الأغاني تفقد العقل وتوصل إلى التخلف. وهل يؤثر هذا على حياتنا كمراهقين؟
7. إذا فقدت البنت حنان أمها وعطف أبيها وحين كبرت رأت نفسها وحيدة ولا أحد يهتم لها من أهلها المتقاتلين دائماً، ماذا تفعل؟
8. ما هو سبب التمييز بين الصبي والبنت من قبل الأهل؟ وخاصة الأم تقول أن الصبي أحسن من البنت لأسباب كثيرة. أرجو الرد على سؤالي؟
9. المراهق يحتاج إلى أعمال جنسية في فترة بلوغه لهذا يعمل أعمال شغب مع أهله؟

ما رأيك؟

وهنا نذكر ببعض ما ورد في تقارير المدرسين المكلفين بمهام توجيهية عن الحالات التي تعاملوا معها في العام الدراسي 2012-2013 في المدارس الرسمية حول العنف المدرسي بأنه يتمثل بضرب مبرح شبه يومي، وحيث أن الأب هو المعنف غالباً، والأم أو أحد أفراد العائلة، أحياناً. مع حالات معدودة من الاغتصاب أو التعدي الجنسي، وحالة وحيدة من السلوك السادي عند طفلين أخوين، لا ننسى بأن العينة حسب هذه الدراسة مؤلفة من 104 تلاميذ 56 تلميذاً و48 تلميذة.

كما أن هناك سبباً آخر لاختياري هذا البحث، ويتعلق بشكاوى الطلاب الجامعيين، واللافت أن أغلب المشاكل التي طُرحت من قبلهم، تدور في معظمها حول علاقة متوترة بين الطلاب وأهاليهم، والملفت أيضاً، أن طلاب الجامعات تخطوا في أغلب الأحيان عمر المراهقة، فهل نحن في صدد مراهقة ممتدة مثلا؟ حيث يصعب استقلال المراهق عن أهله لأسباب اقتصادية واجتماعية وعاطفية وتبعية لهم على كل الصعد... الفرضية إذاً أننا في مأزق فيما يختص بالتفاعل والتواصل بين الأهل والأبناء يؤدي في كثير من الأحيان إلى عنف متبادل. وإذا كان الحال كذلك فما هي الأسباب؟ ما هو دور الأسرة التربوي والعلائقي لتنشئة سليمة للأبناء؟ خصوصاً في فترة المراهقة، حيث أن المراهق ليس فقط مسؤولية الأسرة والمدرسة بل المجتمع بأكمله وخصوصاً في عصر العولمة الحالي

استمارة البحث.

نعود إلى استمارة البحث حول مشاكل المراهقين وأعترف بأن العينة كانت صغيرة، فهي لم تتعد المئة لأن أكثر من عشرين مراهقاً لم يُرجع الاستمارة! ولكنني أعتبر هذه العينة ممثلة فعلاً لهذه الفئة من العمر التي انحصرت ما بين 14 و19 سنة، وتناولت تلامذة المدارس وليس المراهقين العاملين، أي الذين هم خارج نطاق المدرسة، وهم كُثر ولم تتناولهم أية دراسة حتى الآن. وأتمنى أن يلقوا الاهتمام الكافي إن كان على صعيد الدراسات حول أوضاعهم، أو على صعيد الاهتمام الفعلي بهم من قبل الدولة، حتى لا يتحولوا إلى عناصر شغب، وإفساد داخل المجتمع.

رصدت الاستمارة، بالإضافة إلى وضع المراهق داخل أسرته، (جنسه، عمره، عدد الأخوة والأخوات، الوضع المهني للأب والأم)، الوضع المدرسي والصعوبات في هذا المجال، ثم المراهق داخل أسرته واشكالية علاقته مع أهله، ثم المشكلات أو الصعوبات في المجال الاجتماعي والجنسي والعاطفي.

- بدأنا دائماً بسؤال الإجابة عليه مغلقة (نعم أو لا) ثم أتبعناه بسؤال آخر الإجابة عليه

مفتوحة مثلاً: ما هي برأيك أسباب هذه الصعوبات؟

- كذلك بالنسبة لبقية الأسئلة حول مختلف المواضيع، وإن كانت الخيارات للأجوبة المغلقة أكثر تنوعاً بالنسبة لبعض الأسئلة مثلاً جواباً على السؤال رقم 1 حول العلاقة مع الأهل: هل تأخذ برأي الأهل فيما يتعلق بقراراتك الشخصية؟

تراوحت الخيارات بين:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

ثم عدنا للإجابة المفتوحة عبر السؤال رقم 4:

هل تريد أن تضيف شيئاً آخر في هذا المجال؟

نعم ☐ كلا ☐

إذا كان نعم ما هو:

ونذكر هنا بأن هذه الإضافات من قبل التلاميذ هي التي أوضحت حقيقة العلاقة بين الأهل والأبناء سلبية كانت أم إيجابية، إذ سمحت هذه الطريقة لكل تلميذ التعبير والكتابة عن نفسه وعن معاناته، عن مراهقته، عن علاقته بأهله ما يشاء، متحرراً من كل القيود والرقابة: أولاً- لأن الاستمارة كانت مغفلة الإسم. ثانياً- لأن هذه الطريقة تشبه إلى حد كبير ما يجري في المقابلة، أو في مواقف التحليل النفسي وفي العيادات النفسية.

وقد إتبعنا نفس الأسلوب للتقصي عن مفهوم الذات، والنضج الجنسي.

من أهم النتائج لهذا البحث أن المشكلات جاءت من حيث ترتيب الأهمية كما يلي:

1. مشكلات أسرية علائقية.
2. صعوبات مدرسية تربوية.
3. مشكلات تتعلق بمفهوم الذات.
4. مشكلات عاطفية (العلاقة مع الجنس الآخر).

وزعت الاستمارة على تلامذة مدرستين واحدة خاصة وواحدة رسمية.

مقارنة الصعوبات العلائقية الأسرية لتلامذة المدرستين: الخاصة والرسمية.

يعتبر العالم الإلماني كورت لوين(Kurt Lewin)[7] زعيم مدرسة علم النفس التوبولوجي، وأول من أكد على أهمية عامل القوى الاجتماعية العلائقية الفعالة وأثرها في فترة المراهقة. حيث وجد بأن ما يجعل فترة المراهقة مليئة بالمشكلات، كونها عبارة عن فترة تغير في الانتماء إلى الجماعة، فبعد أن كان المراهق ينتمي إلى جماعة الأطفال، أصبح لا يريد أن يعامل كطفل، ويحاول ما أمكن انتزاع نفسه بعيداً عن هذه الطفولة، والأمور المتعلقة بها، ويعمل جاهداً لدخول حياة الراشدين بسلوكه وفي نظرته للحياة، أي أنه أصبح ينتمي إلى عالم الراشدين.

والوصول إلى الرشد الجنسي لا يحتم الوصول إلى الرشد العقلي الذي يعتقد المراهق بالتوصل إليه، مما يولد لديه الشعور بالمساواة بينه وبين الراشدين، وخصوصاً الأهل، مما يقوي إمكانية الصراع بينهما. كما أن وصول المراهق إلى مستوى تفكير الراشد لا يضع حداً لدونيته الاجتماعية مما يولد لدى المراهق الشعور بالمرارة ورفض أية مساعدة وخصوصاً من الأهل حيث يعتبرها تدخلاً في شؤونه الخاصة.

فهو يحاول الاستقلال والتحرر من سلطة الأهل ما أمكن، وهنا نواجه نماذج من مواقف الأهل المختلفة تجاه المراهقين. مما يدفع إلى صراع بين الأجيال لأن المراهق، المدفوع إلى الحرية والاستقلالية يصطدم بمواقف الأهل. والحل السليم لهذا المأزم العلائقي والذي يحمل في طياته صراعات شديدة. هو قبول الانفصال التدريجي والنهائي، والتحرر من تعلق الأهل بولدهم الذي أصبح مراهقاً، ولكن لا بد من وضع مبادىء وإقامة حدود للحرية. لذلك نقول أنه من الطبيعي أن نجد معارضة لهذه المبادىء والقيود، ومقاومة لسلطة الأهل، لأنه لا يمكن ان تتكون الشخصية بالرضوخ والتسليم، لهذا يجب أن لا تكون الحدود، التي توضع، اعتباطية أو خاضعة لموقف حالي، بل قائمة على مبادىء واضحة. وهنا دور الأهل في تقبل مشاعر المراهقين وثورتهم ضد القيود والسلطة، مع احترام آمالهم وطموحاتهم ولكن مع عدم التفريط بحقهم (أي حق الأهل) في التدخل والتقويم عند الضرورة.

وهنا نضيف بأن المشكلة أمر يشعر به الفرد، ويعيه، ويدركه، وبدون وعي وإدراك لا تكون هناك مشكلة، فالمشكلة لا تكون مشكلة إلا إذا شعر بها الفرد، ورأى ضرورة التخلص منها، وهذا ما عبّر عنه التلاميذ في كلا المدرستين بالنسبة للصعوبات المتصلة بالبيئة الأسرية العلائقية وبمرارة لم نلحظها في أجوبتهم بالنسبة لباقي الصعوبات.

لقد بلغت نسبة الصعوبات العلائقية 78% في المدرسة الرسمية و42% في المدرسة الخاصة ولكن الملفت أن التعبير عن الصعوبات المدرسية والتي بلغت نسبتها 72% في المدرسة الرسمية

و42% في المدرسة الخاصة، جاء بعيداً عن المعاناة بينما المعاناة بالنسبة للصعوبات مع الأهل كان أكبر بكثير، والصرخة أقوى كما سيتبين لنا لاحقاً من خلال أجوبة التلاميذ، وهذا ما جعلنا نعلق الأهمية على هذه المشكلة ونقوم بتحليل أكثر عمقاً، ولكن بالرغم من ذلك ستكون النتائج على المستوى البسيط لأننا نحتاج إلى بحث مستقل في هذا المجال ربما يتابع لاحقاً.

1- الصعوبات العلائقية:

وجدنا أن تلامذة المدرسة الرسمية يميلون إلى الأخذ برأي الأهل والانصياع لهم أكثر من تلامذة المدرسة الخاصة، فيما يتعلق بقراراتهم الشخصية. أما بالنسبة للامتثال لرأي الأهل وتوجاهاتهم (سؤال رقم 6 العلاقة مع الأهل)، فارتفعت النسبة عند تلامذة المدرسة الرسمية إلى ما يقارب 65%. ولكنها لم تتعد 35% بالنسبة لتلامذة المدرسة الخاصة. ويمكننا تبرير وشرح ذلك، ربما بالإمكانات والظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتوفرة لتلامذة المدرسة الخاصة، والتي هي بعيدة عن متناول تلامذة المدرسة الرسمية، بمعنى أن للمراهق المنتمي لمدرسة خاصة، مجال أوسع للتحرك والاختيار والضغط على الأهل، فيما ينصاع الآخر لرأي أهله لعلمه مسبقاً بعدم مقدرتهم على تغيير الظروف المحيطة بهم. وعكس ذلك تماماً ما يحدث عندما يحتاج المراهق مساعدة من أهله إن كان على الصعيد الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي، فنرى النسب المئوية تتغير عكسياً، إذ يلجأ 63% منهم إلى الأهل طلباً للمساعدة، بينما لم تتعد النسبة 37% من تلامذة المدرسة الرسمية الذين يطلبون المساعدة من الأهل. وهذا يثبت صحة ما ذكرناه سابقاً.

أما المراهق من 73% الباقي فعليه الاعتماد على نفسه بإيجاد عمل بسيط يستفيد منه ويؤكد ذاته، وأحياناً لا يحصل هذا التأكيد للذات فيقع في السلبية والشعور بانعدام القيمة الذاتية. في المقابل فإن الخيارات بالنسبة لمراهق الفئة الأخرى تسمح له بتأكيد ذاته والتعبير عن طلباته أمام ما يُقدم له، فهي كثيرة ومتنوعة مما يعطيه فرصة أكبر للخيار والاستقلالية.

وأعطي هنا النماذج التالية من الإضافات لتلامذة المدرسة على السؤال رقم (8)

مراهقة 17 سنة: الشرقيون يعتبرون أنهم مسؤولون عن أولادهم حتى ولو بلغوا سن الرشد، فالأهل لا يفهمون أن أولادهم سيكبرون ويتحررون من قيود الأهل والعائلة.

مراهقة 16 سنة: أظن أن هناك فرقاً كبيراً بين تفكيرنا وتفكيرهم، وأؤمن بعدم قدرتهم أن يفهموا وجهة نظري، وأشعر بأن عليّ أن أشق حياتي بنفسي وإلا ستكون نهايتي كنهاية أمي من دون وضع اجتماعي متقدم (وحسب الاستمارة الأم لا تعمل، ولم تذكر نوع عمل الأب، وعدد الأولاد 7 وهي أصغرهم وتعاني أيضاً من صعوبات مدرسية).

مراهق 14 سنة: الأهل يتشددون كثيراً في مجال الدراسة، وهذا يزعجني فيهم، وأشعر أحياناً أنهم يستفزونني في بعض المجالات (ولم يذكر في أية مجالات) الصف المتوسط الثالث يشكو من المعلمين غير المتفهمين، ويتمنى دائماً لو كان شكله أفضل، الأب طبيب والأم أستاذة جامعية.

أضاف مراهق آخر بعمر 17 سنة:

أعتبر أنه ليس من حق الأهل التدخل في شؤون أولادهم، ومراقبتهم، ومراقبة رفاقهم، والاستماع إلى مكالماتهم الهاتفية، ونحن نعرف أكثر منهم في أشياء كثيرة!

مراهق 16 سنة عبّر بطريقة ساخرة قائلاً: «قطعت لهم ورقة» من زمان، ولا علاقة لهم بحياتي.

- نستطيع أن نقول هنا بأن التمرد المستمر والخلافات المتكررة كلها تدخل في صلب التربية السليمة وكأنها نوع من إثبات الذات عن طريق معاكسة الأهل، ولكن الخطر عندما لا يستطيع المراهق تحقيق الاستقلالية فيحاول لفت الأنظار بواسطة التصرفات السلبية: صراخ، تخريب، عدوان، عنف، وهذه عملية سهلة جداً بالنسبة له، وقد يحاول الرسوب إرادياً عندما يجد أن رغبات الأهل أصبحت غير محتملة، كما يفقد المراهق عفويته في التعامل والتواصل مع أهله نتيجة للتبدل الذي يحصل على الصعيد البدني وخصوصاً الجنسي والنفسي والعلائقي. وكثيراً ما يُظهر الأهل انزعاجهم أمام هذا الرفض وهذا العنف الناشىء، والتصرفات اللامبالية.

- وبالعودة للمقارنة بين الصعوبات العلائقية الأسرية لتلامذة المدرسة الخاصة مع تلامذة المدرسة الرسمية، نُلاحظ هنا غياب شبه تام للعنف من قبل أهل تلامذة المدرسة الخاصة تجاه أولادهم، في حين لم تخلُ ألفاظ وتعابير هؤلاء المراهقين من العنف الكلامي الموجه لأهاليهم. وهنا نتساءل عن الدوافع الكامنة وراء العدوانية لدى هؤلاء التلاميذ، ودور التربية الأسرية في ذلك؟ وفي المقابل تمحورت شكاوى تلامذة المدرسة الرسمية حول مشكلة العنف الأسري إن كان لجهة التعنيف الكلامي، أو الضرب من قبل الأهل وغالباً ما يكون الأب هو المعنف وهذا ما يذكرنا بدراسات «Steinmetz»[8] أن الطفل يتعلم بالمحاكاة، من العنف المتبادل بين الأبوين أو الموجه ضده، أسلوباً لحل مشكلاته مع أفراد أسرته وخارجها. وهذا ما أكّد عليه «Bandura»[9] عبر نظريته في التعلم الاجتماعي، وهي من النظريات المعاصرة، والتي أثرت في تطور حركة العلاج السلوكي للطفل. فمن خلال دراساته وتجاربه على الأطفال حاول أن يبرهن أن كثيراً من الجوانب المرضية من سلوك الأطفال - كالعدوان الذي كان من الموضوعات الرئيسية له - تتكون بفعل القدوة ومشاهدة الآخرين وهم يقومون بها (التعلم الاجتماعي).

- من الواضح، من أجوبة تلامذة المدرسة الخاصة، الاختلاف في نوعية العلاقة مع الأهل

بالمقارنة مع تلامذة المدرسة الرسمية، حيث يرتفع سقف المطالب لجهة الحرية الشخصية، كالخروج من المنزل واتخاذ القرارات دون الرجوع إلى الأهل. بالإضافة إلى وعي واضح بالذات كشخص يقترب من الرشد وقد عبّر أغلبهم عن ذلك بالقول: «ليفهم الأهل أن الحياة ليست للدرس فقط، وإنما هناك أشياء أخرى تهمنا». كما يلاحظ هنا إلحاح الأهل على التحصيل الدراسي، وكأن العلاقة بين الأهل والأبناء في هذه الشريحة من المجتمع تتحول إلى تبادل مشروط: الحب مقابل النجاح.

- وهكذا يظهر كما لو أن المراهق الذي يستطيع أن يتمرد ويناقض سلطة الأهل، مطالباً باستقلاليته وعدم تبعيته لهم وبعدوانية كلامية ظاهرة أحياناً، يقوم بعمل تفريغي لتناقضاته المعاشة، ويصبح أقل عنفاً جسدياً من مراهق الفئة الأخرى الذي لا يستطيع مواجهة عنف الأب الجسدي بمثله (على الأقل في الفترة الحالية).

- في الحالات الأكثر شيوعاً يتلقى الأبناء العنف من أبنائهم كما أظهرت مختلف الدراسات، ولكن قد يحصل العكس أيضاً أي أن يكون الأبناء عدائيون تجاه أبويهم. «Pagelow»[10] وهذا ما أكدته أجوبة بعض تلامذة المدرسة الخاصة، التي احتوت على عدوانية كلامية ظاهرة تجاه الأهل.

2- صعوبات مدرسية تربوية.

بالنسبة لهذه الصعوبات فقد تراوحت أسبابها بين جو الصف بشكل عام وطرق التدريس بالنسبة للمدرسة الرسمية كما تكررت الشكوى من الشغب داخل الصفوف من بعض التلاميذ وعدم قدرة المعلم على ضبطها.

وكذلك الشكوى من المواد العلمية والصعوبة هنا حسب أغلب الشكاوي ليس فقط من فهم المادة العلمية وإنما أيضاً من فهم اللغة الأجنبية التي تدرّس بها.

والشكوى الثالثة، من كثرة أعداد التلاميذ في الصف مما يؤدي إلى الفوضى وقلة النظام، ومن ثم تأتي في الدرجة الرابعة الشكوى من قلة التركيز أو الدرس.

وبانتقالنا إلى المدرسة الخاصة نجد المعادلة مقلوبة فالشكوى الأولى هي عدم الدرس وعدم التركيز، والاعتراف بالإهمال من قبل التلاميذ.

وتأتي في المرتبة الثانية الشكوى من كثرة الدروس والضغوط على التلاميذ وقلة الوقت لديهم للقيام بذلك، «لأن هناك أشياء أخرى غير الدرس كما ذكر الكثير منهم».

فالمشترك إذاً بين المدرستين هو وجود صعوبات على الصعيد المدرسي والعائلي ولكن

الاختلاف هو في الصعوبات ومنشئها ودرجتها.

فالفوضى وكثرة التلامذة في الفصل الواحد، أو عدم فهم اللغة الأجنبية لم نلحظه في أية استمارة لتلامذة المدرسة الخاصة. إذ أن الصعوبة في الدرجة الأولى لدى تلامذة هذه المدرسة تتعلق بالذات بنفس التلميذ كونه لا يركز أو غير مبالي بما يُعطى له، أو ليس لديه الوقت الكافي للدرس، بالإضافة إلى كثرة الفروض والدروس، وإلحاح الأهل الدائم للعمل والنجاح، «حسب إجابات تلامذة المدرسة الخاصة».

ولا يخفى هنا ما الفرق بين مدرسة رسمية ومدرسة خاصة غير مجانية في لبنان وبالتالي الفرق بين تلامذة هاتين المدرستين لجهة الانتماء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

كما يلاحظ أن الصعوبات لدى تلامذة المدرسة الرسمية على الصعيدين العائلي والمدرسي هي أكثر بكثير منها لدى تلامذة المدرسة الخاصة. إذ نجدها بنسبة 78% صعوبات عائلية و72% صعوبات مدرسية في حين أنها لم تتخط نسبة 42% عند تلامذة المدرسة الخاصة إن كانت هذه الصعوبات مدرسية أم عائلية.

3- مشكلات تتعلق بمفهوم الذات عند المراهق.

إن عملية البلوغ والنضج الجسمي تحدث تغيرات في اتجاهات المراهق نحو ذاته، يؤدي إلى تعديل مفهوم الذات وإعادة تنظيمه، ويأتي في مقدمة هذه العوامل المؤثرة في مفهوم الذات صورة الجسم (Schema Corporel) وما يترتب عن ذلك من مشكلات.

فإذا أضفنا إلى المشكلات العلائقية مع الأهل، المشكلات الذاتية المتعلقة بالصعوبات المدرسية أو صورة مشوشة عن مفهوم الذات مثلاً كما عبر عنها عدد غير قليل من المراهقين، وخصوصاً في المدرسة الخاصة الذين تمنوا دائماً لو كان شكلهم أفضل مما هو عليه أن لجهة الطول أو الوزن، فقد تراوحت هذه النسب بين 14% للذكور و27% للإناث في التعليم الرسمي بمعنى 59% من مراهقي هذه الفئة لم يُظهر أية معاناة أو رغبة في التغيير لصورة الذات، بينما كانت هذه الرغبة أعلى لدى تلامذة المدرسة الخاصة الذين تمنوا لو كان شكلهم أفضل فتراوحت النسب بـ40 % للذكور و30% للإناث، بمعنى 22% راضون عن صورتهم الذاتية.

وهذا ما يشكل قلق لدى هذه الفئة لجهة الصورة التي تريدها لنفسها، متأثرة طبعاً بكل ما يعرض وما يقال في وسائل الإعلام والإعلان عن الأجسام القوية والعضلات المفتولة، ولاعبي «الباسكت بول» والرياضيين بشكل عام، لجهة المراهقين الشباب، وبال«توب موديل» والقوام الممشوق والوجوه والصدور ذات الملامح البارزة بالنسبة للمراهقات! ويؤكد كل من جورارد

(Jorard)، وسيكورد (Secord)[11] على أهمية العادات الاجتماعية والمعايير السائدة بالنسبة إلى مفهوم الذات. فالأمر إذاً يحتاج إلى نقاش حول رفض بعض المراهقين والمراهقات لذواتهم، والرغبة في الصورة التي بالخيال مع رفض الصورة الواقعية.

وهنا نتساءل: هل هذا بسبب التربية، أم بسبب الإعلام الذي يطبع صور الحلم والخيال، أم بسبب المجتمع الذي يشجع قمع أن تكون حقيقياً وأن تكون ذاتك؟ !

الأمر يحتاج إلى بحث أطول حول هذه النقطة بالذات.

4- النضج الجنسي.

أظهرت الاستمارة فيما يختص بالنضج الجنسي نسبة أكبر من التلاميذ في المدرسة الرسمية الذين يحاولون إخفاء خجلهم ويبذلون مجهوداً كبيراً لذلك في علاقاتهم مع الجنس الآخر[12]، وخصوصاً لدى الفتيات إذ غطت النسبة 57% (شعور بالخجل) والباقي توزع بين 30% أحياناً و13% أبداً.

في الجهة المقابلة تراوحت هذه النسبة بين 33% ممن يشاركون زملائهم في المدرسة الرسمية حول إخفاء هذا الخجل بالتعامل مع الجنس الآخر بالإضافة إلى 20% أحياناً و47% أبداً.

ويمكننا تفسير هذا التأكيد بعدم الشعور بالخجل والحرج أمام الجنس الآخر إلى تأكيد الذات أمام الأهل والمطالبة بالحقوق الشخصية والاستقلالية لدى هذه الفئة من التلاميذ المدعومين كما قلنا سابقاً بأوضاع اقتصادية واجتماعية وثقافية في محيطهم تشعرهم بالثقة والاحترام.

كما أظهرت الدراسة حول نفس الموضوع (الميول الجنسية الغيرية) ما نسبته 20% لدى إناث المدرسة الرسمية و3% لدى إناث المدرسة الخاصة ممن لا يرغبن بالاختلاط بين الجنسين، بينما لم يعبر أحد من الذكور في كلا المدرستين عن عدم موافقته على هذا الاختلاط.

فكل هذه المشاكل والعقبات إذا ما تقاطعت في فترة المراهقة، فإنها تعرض المراهق للقلق والتوتر، والعنف أو الانحراف السلوكي والفكري مما ينعكس سلباً عليه وعلى مجتمعه، لذلك نراه يضيق ذرعاً بالوسط الأسري الذي لا يفهمه كما يريد.

والسؤال الأخير في هذا البحث: كيف يمكننا أن نحول هذه الثورة وهذا العنف المتبادل بين الأهل والمراهق إلى سلام، يحقق التوازن النفسي الاجتماعي للمراهق ويسمح للأهل بالتدخل عند الضرورة. للتقويم والإرشاد؟ .

الحقيقة أنه لحوار الطرشان بين الأهل والمراهقين، فهل نحن حقاً في أزمة تختص بالعلاقات

الأسرية، خصوصاً في فترة المراهقة؟ هذه الأسرة التي هي المشكلة والحل في نفس الوقت.

إننا جميعاً معنيين بهذه الظاهرة، ونسعى في أغلب الأحيان أن نجد لها الأسباب والمبررات بعيداً عن ذواتنا وثقافتنا ومثلنا وسلوكنا، وتهرباً من مسؤوليتنا لأننا نعلم جيداً أن المراهق هو صورة عن بيئته وعن أسرته ومجتمعه.

إن دور الأسرة وأثرها في تشكيل شخصية الطفل، المراهق ومن ثم الراشد لا جدال حوله، وهنا نطرح بعض التساؤلات حول سبب اضطرابات المراهقين:

- هل هو التذبذب في التعامل مع المراهق (بين القبول والرفض، اللين والشده، التدليل والقسوة)، مما يُشعر المراهق بالقلق وعدم الأمان؟
- هل هو التسلط والاستبداد، أو رعونه المربي مما لا يفسح المجال للمراهق بالتوحد به ويعيق بالتالي تكوين شخصيته؟
- هل هو عجز الأهل عن مواجهة مشكلات أبنائهم لعدم معرفتهم بطبيعة المراهقة ومتطلباتها، أو لعدم مراعاتهم لتطور العصر، أو لظروفهم النفسية؟
- هل هو التفاوت بين قيم الأسرة من ناحية وقيم المجتمع من ناحية أخرى؟
- هل هو التمايز الذي تخلقه بعض الأسر بين الذكر والأنثى؟

طرحنا بعض الأسباب لاضطرابات المراهق الناتجة عن تفاعل الأهل معه، ولا ننسى بأن هذا المراهق واقع أساساً في مأزق مع نفسه ومع العالم، يرزح تحت ضغط مشكلات لا يستطيع أن يجد لها حلولاً أو إجابات، حتى جسمه أصبح غريباً عنه! فهو في حالة التفتيش عن هويته، يعارض ويثور ضد كل سلطة، وضد الأعراف والتقاليد، وما ثورته وعنفه إلا انعكاساً لطبيعة هذه المرحلة.

فالمراهق يريد الابتعاد عن طفولته ما أمكن، وأن يعامل كراشد، ولكنه يتأرجح في كل سلوكه وتصرفاته بين الحالتين، وهذا سبب أساسي في انهيار النظام العلائقي بينه وبين أهله، كون موقفه منهم يغلفه الغموض وكما يقول د معاليقي[13]: الأهل يسقطون أسباب المأزم العلائقي بينهم وبين مراهقيهم على الآخرين مما يساهم في تعقيد المشكلة وزيادة العنف عند المراهق، وزيادة التساؤلات عن مبرراته عند الأهل.

- إن المواقف السلبية للأهل (كإظهار القوة والدخول في معركة كلامية أو جسدية لإثبات القوة والفعالية، أو مجابهة عدوانية ووقاحة المراهق بمثلها، أو بعدم الاكتراث) يؤدي

إلى تعقيدات في النمو في فترة المراهقة، وقد تتحول هذه الأزمة العابرة لنزاع عميق ومستمر بين المراهق وأهله وتؤدي إلى قطع الحوار نهائياً فيما بينهم. إذاً الكل خاسر سلفاً ولا وجود لرابح في مجابهة علائقية أسرية من هذا النوع.

- إن معرفة الأهل هذه الأمور تفتح أمامهم الطريق للتعرف إلى مراهقيهم، ومساعدتهم عن طريق تقبل هيجانهم وثورتهم واحترام حاجاتهم إلى العزلة، إذ عليهم ضبط «الأدرينالين» قدر المستطاع، وألا يظهروا وكأنهم يراقبون المراهق أو يشكون في تصرفاته، أي أن يتسامحوا كثيراً ويعاقبوا قليلاً[14].
- ومن حقوق المراهقين على المربين وخصوصاً الأهل احترام آرائهم وعدم التقليل من قيمة طموحاتهم وأحلامهم، مع احتفاظ الأهل بحقهم في التدخل لتقويم بعض الأفعال والتصرفات وتوجيهها بالشكل السليم.
- باختصار علينا الثقة بالمراهق واحترامه، والتعامل مع الميول التي تُنبيء بالانحراف إذ وجدت عنده بالترويض والعلاج، بدلاً من القسوة والعنف، أو التهكم والتجريح، إن المراهقين بفطرتهم وقلة تجاربهم منفتحون على التغيير، والثورة وكل جديد.

وقد يكون هذا الجديد عنيفاً وخطراً، لذلك يجب تحصينهم وتوعيتهم عن طريق المعرفة، وهذه مهمة صعبة للغاية وتتطلب مشاركة، الأهل والمدرسة والمجتمع، والدولة بكل إمكانياتها ووسائل إعلامها، بعيداً عن مصادر الإعلام الخاطىء، خصوصاً بالنسبة للثقافة الجنسية والتوعية من فخ الإدمان على المخدرات عبر المناهج التربوية. فلندخل إذاً علم الدولة الحديث من باب التربية والاهتمام بالمواطن، ولنؤسس لمراهقينا، لأنها مسؤوليتنا جميعاً، بدءاً بالعائلة، مصدر القيم والسلوك الحسن ومن ثم المدرسة ودورها في توفير التفاعل الاجتماعي بعيداً عن العنف والتسلط، وانتهاءاً بالمجتمع الذي له الدور الأكبر في احتواء المراهقين عن طريق مؤسساته المختلفة.

إن الأبحاث المتعلقة بالعنف الأسري التي تم نشرها في السنوات الأخيرة قد ساهمت في إحداث تغيير جذري في إيقاظ الوعي الاجتماعي العام بخطورة هذه المسألة وظهرت على أثرها أشكال متنوعة من المداخلات النفسية الاجتماعية، لمساعدة ضحايا وشهود العنف، في أميركا وأوروبا الغربية. كما ساعد التغيير في القوانين في تلك البلدان على إبعاد فكرة الخصوصية أو السلبية أو التجاهل لما يحصل من خلافات بين الأقارب. ولكن نحن مع الأسف ما زلنا بعيدين عن هذه الحلول بالمقارنة مع بقية البلدان الغربية، باستثناء بعض المبادرات الفردية للعاملين في ميادين الخدمة الاجتماعية.

إذاً يجب العمل على مكافحة هذه الظاهرة الخطرة وأقصد العدوان داخل الأسرة عن طريق مواجهة سوء استخدام السلطة الأبوية أو الزوجية أو الأخوية، لما لها من ذيول خطيرة ومدمرة على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع.

الحواشي

(1) Bandura,A. (1977) social learning theory, Toronto: prentice Hall of Canada. P55.

(2) مطاوع بركات. (1999). العدوان والعنف في الأسرة، عالم الفكر، المجلد السابع العدد الرابع أبريل، ص. 61

(3) طبعا الأسلام حرم ذلك

(4) Freud. S. (1962). Trois essais sur la theorie de la sexualite', Paris: Gallimard, p. 35

(5) Haim,. A. (1970). Le suicide d'adolescents, Paris: Payot, p. 21

(6) عبد الستار ابراهيم (1993). العلاج السلوكي للطفل، عالم المعرفة، العدد 180.
بالرغم من نقص الدراسات التي تبحث في دور الأب وتأثيره الوجداني في الطفل, فإن هناك ما يثبت أن كثيرا من الأنحرافات السلوكية قد ينتشر لدى الأطفال الذين افتقدوا وجود الاب أو يعيشون مع أب لا يسمح للطفل التوحد به. وينصح العلماء ان يشارك الأب في تربية الطفل وملاعبته، وأن يخصص وقتا طويلا له للإسهام في عملية تنشئته. ومن شأن ذلك ان يساعد الطفل على تقبل الأب، ومن خلال ذلك يتمثل متطلبات الدور الأجتماعي الذكري، ويكتسب كثيرا من المهارات المرتبطة بدور الرجل في المجتمع كتحمل المسؤولية والإيجابية والمبادرة.

(7) Lewin kurt. (1952). Field theory in social science, N. Y, p. 52

(8) Steinmetz, S. (1978). Family violence, N. Y. Penguin publishers. p. 38

(9) Bandura, A. , (1977), Social learning theory, p. 49

(10) Pagelow, MD. , «Adult victims of domestic violence» in journal of international violence, vol. 7 no. 1,p. 17

(11) حامد زهران، (1977) علم نفس النمو، القاهرة: عالم الكتب، ص. 33

(12) عودة الى الأستمارة ص. 2 سؤال رقم 18-19

(13) عبد اللطيف معاليقي، (1996)، المراهقة ازمة هوية ام ازمة حضارة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص. 77

(14) مرجع ذاته ص. 78

المصادر والمراجع

(1) ابراهيم عبد الساتر. (1993). العلاج السلوكي للطفل، عالم المعرفة، العدد 180

(2) بيبي هدى. (1995). أبناؤنا في خطر، مورد للمرشدين والمعلمين والأهل, عن اكاديميا انرناشيونال ش. م. ل.

(3) بركات مطاوع. (1999). العدوان والعنف في الأسرة، عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون العدد الرابع، أبريل

(4) التير مصطفى. (1978). اتجاهات العنف في المجتمع العربي، المجلة العربية للدراسات الأجنبية، المجلد 3، .

(5) حب الله عدنان. (1996). جرثومة العنف، بيروت: دار الطليعة.

(6) دسوقي كمال. (1979). النمو التربوي للطفل والمراهق، بيروت: دار النهضة العربية.

(7) الديدي عبد الغني. (1995). التحليل النفسي للمراهقة، بيروت: دار الفكر اللبناني

(8) زهران حامد (1977). علم نفس النمو، القاهرة: عالم الكتب.

(9) زيعور محمد. (1993) التأهيل النفسي والاجتماعي للطفل والمراهق، بيروت: مؤسسة عز الدين.

(10) الزراد فيصل. (1997)، مشكلات المراهقة والشباب في الوطن العربي، بيروت: دار النفائس

(11) معاليقي عبد اللطيف. (1996). المراهقة: أزمة هوية أم أزمة حضارة، لبنان: شركة المطبوعات للنشر والطباعة.

(12) ياسين جعفر. (1981). أثر التفكك العائلي في جنوح الأحداث، بيروت: مطابع عالم المعرفة

(13) Berset Augustin. (1974). Pour une orientation morale non directive des grands adolescents, Paris : édition du Centurion.

(14) Bandura A. (1977). Théorie de l'apprentissage sociale, (J. -A. Rondal, trad.). Bruxelles : Pierre Mardaga.

(15) Dolto Françoise. (1987). La cause des adolescents, Paris : Pocket.

(16) Erikson Eric. (1972). Adolescence et crise, Paris : Flammarion.

(17) Gesell A. (1970). L'adolescent de 10 à 16 ans, Paris : P. U. F.

(18) Gallimard Pierre. (1978). 11 à 15 ans, Paris : Privat.

(19) Haïm. A. (1970). Le suicide d'adolescent, Paris : Payot.

(20) Inhelder B. et Piaget J. (1970). De la logique de l'enfant à la logique de l'adolescent, Paris : P. U. F. 2e édition.

(21) Mendel G. (1974). La crise des générations, Paris : Payot.

(22) Pagelo MD. «Adult victims of Domestic violence» in Journal of International Violence, Vol. 7 No 1.

(23) Piaget Jean. (1969). Psychologie et pédagogie,Paris : éd. Méditations.

(24) Steinmetz S. (1978). Family violence (Violence familiale), N. Y. Penguin Publishers.

(25) Winnicott D. W. (1978). L'enfant et sa famille, Paris : Payot.

(26) Winnicott D. W. (1978). Processus de maturation chez l'enfant, Paris : Payot.

إستمارة بحث

تناولت إستمارة البحث المشكلات العلائقية الأسرية (الأهل والمراهقين)، الصعوبات المدرسية والتربوية، مفهوم الذات، إضافةً إلى المشكلات العاطفية (العلاقة مع الجنس الآخر).

وُزِعت الإستمارة على تلامذة مدرستين واحدة خاصة وواحدة رسمية في منطقة طرابلس.

شملت عيّنة الدراسة 104 تلامذة (56 ذكور) و(48 إناث) وانحصرت الفئة العمرية بين (14 و19 سنة).

ضع إشارة في المربع المناسب:

1 - الجنس ذكر ☐ أنثى ☐

2 - مدرسة خاصة ☐ مدرسة رسمية ☐

3 - العمر ☐ عدد الإخوة والأخوات إناث ☐ ذكور ☐

4 - ترتيبك بين إخوتك وأخواتك -----------

5 - الوضع المهني للأب ----------- الوضع المهني للأم -----------

6 - هل تعاني من صعوبات في علاقتك بأهلك؟

نعم ☐ لا ☐

إذا كان الجواب نعم، ما هي برأيك هذه الصعوبات، وما هي أسبابها-----------------------------

7 - هل تأخذ برأي الأهل فيما يتعلق بخياراتك وقراراتك الشخصية؟

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

8 - خلافاتي مع أهلي تدور بأغلبيتها حول:

9 - هل تستطيع التعبير عن أفكارك ومشاعرك أمام والديك؟ أو أحدهم؟

هل تريد إضافة شيئاً آخر في هذا المجال؟

نعم ☐ لا ☐

إذا كان نعم، ما هو؟

10 - هل تعاني من صعوبات في المدرسة؟

نعم ☐ لا ☐

إذا كان الجواب نعم، هل هي (أي) الصعوبات على علاقة:

بالمعلم ☐ جو الصف ☐ المواد ☐

طريقة التعليم ☐ قدراتك الشخصية ☐

11 - ما هي أسباب هذه الصعوبات؟

12 - عندما أنظر إلى نفسي في المرآة، أتمنى لو أن:

13 - أعتقد بأن الآخرين بشكل عام أفضل مني:

نعم ☐ لا ☐

إذا كان الجواب نعم، لماذا؟

14 - أفضّل أن أكون في مدرسة مختلطة:

نعم ☐ لا ☐

15 - أتردد كثيراً قبل التحدّث مع زميلي/زميلتي:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

16 - أتمنى لو أستطيع قضاء وقت إضافي مع رفاقي/رفيقاتي خارج المدرسة:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

17 - أرغب التحضير للإمتحانات مع زميلي/زميلتي:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

18 - أفضل الجلوس في الصف على مسافة من زميلي/زميلتي:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

لأنني: أشعر بالخجل عندما يكلمني زميلي/زميلتي:

دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

19 - هل ترغب/ترغبين إضافة أو شرح أكثر في هذا المجال؟

20 - أهلي يغضبون مني من دون أن أعرف سبباً لذلك:

أبي: دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

أمي: دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

21 - يعاقبني والداي بالضرب على أقل غلطة:

أبي: دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

أمي: دائماً ☐ أحياناً ☐ أبداً ☐

حصلنا على إضافات غنية جداً من خلال الأسئلة المفتوحة أمام الطلاب للتعبير بحرية مطلقة، وقد أشرنا إليها خلال البحث.